

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٤ - سُورَةُ الْمَدَثَرِ

مكية . وآيها ست وخمسون آية .

قال ابن كثير : ثبت في صحيح البخاري عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن (يَسَاءُ يُهَا الْمُدَثِّرُ) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) كما سيأتي بيان ذلك هناك ، إن شاء الله تعالى .

روى البخاري^(١) عن يحيى بن كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يَسَاءُ يُهَا الْمُدَثِّرُ) . قلت : يقولون (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لي ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت فنظرت عن يميني ، فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خافي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت : دثروني وصبوا علي ماء بارداً . قال ، فدثروني وصبوا علي ماء بارداً . فنزلت (يَسَاءُ يُهَا الْمُدَثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ » .

وروى الشيخان أيضاً^(٢) عن الزهري قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧٤ - سورة المدثر ، ١ - حديثي يحيى

حديث رقم ٤ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٥ (طبعنا) .

ابن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجئْتُ منه رعباً ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني . فدثروني ، فأنزل الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . . . » الآيات .

قال ابن كثير : وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله (فإذا الملك الذي جاءني بحراء) وهو جبريل حين أتاه بقوله (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد . هذا وجه الجمع : أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة .

وروى الطبراني عن ابن عباس : أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدثر ، فأنزل الله تعالى (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . . .) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

- [١] (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)
- [٢] (قُمْ فَأَنْذِرْ)
- [٣] (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)
- [٤] (وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ)
- [٥] (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)
- [٦] (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ)
- [٧] (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » أى التلطف بثيابه لغوم أو استدفاء ، من الدثار ، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار . والشعار الثوب الذى يلبى الجسد . وأصله (المدثر) فأدغم . خوطب بذلك حالته التى كان عليها وقت نزول الوحي . أو لقوله : دثرونى - كما تقدم - . وقيل : معناه المدثر بدثار النبوة والرسالة ، من قولهم : ألبسه الله لباس التقوى ، وزينه برداء العلم . ويقال : تلبس فلان بأمر كذا . فجعل النبوة كالللباس مجازاً .

قال الشهاب : إما أن يراد المتحلى بها والمتزين ، كما أن اللباس الذى فوق الشعار يكون حلية لصاحبه وزينة . وكذا يسمى (خلة) . والتشبيه بالدثار فى ظهورها ، أوفى الإحاطة . والأول أتم .

« قُمْ » أى من مضجعتك ودثارك . أو قيام عزم وجدّ « فَأَنْذِرْ » أى فحذر قومك من العذاب إن لم يؤمنوا .

قال الشهاب : لم يقل (وَبَشِّرْ) لأن كان في ابتداء النبوة ، والإنذار هو الغالب ، لأن البشارة لمن آمن ، ولم يكن إذ ذاك . أو هو اكتفاء لأن الإنذار يلزمه التبشير .
« وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » قال ابن جرير^(١) أى فمعظم بعبادته ، والرغبة إليه في حاجاتك ، دون غيره من الآلهة والأنداد .

وقال القاشاني : أى إن كنت تكبر شيئاً وتعظم قدره ، فخصص ربك بالتعظيم والتكبير ، لا يعظم في عينك غيره ، ويصغر في قلبك كل ما سواه ، بمشاهدة كبريائه .
« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » أى : بالماء من الأنجاس . قال ابن زيد ، كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره أن يتطهر ويطهر ثيابه . وقيل هو أمر بتطهير القلب مما يستقذر من الآثام .
قال قتادة : العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بم عهد أنه دنس الثياب . وإذا وفى وأصلح ، قالوا : مطهر الثياب .

وعن ابن عباس : أى لا تلبسها على معصية ، ولا على غدره . ثم أنشد لغيلان بن سلمة^(٢) الثقفي :

وإني ، بحمد الله ، لا ثوبَ فاجرٍ لبستُ ، ولا منْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ
وفي الوجه الأول بقاء لفظى الثياب والتطهير على حقيقتهما ، وفي الثانى تجوز بهما . وبقى وجه ثالث ، وهو حمل الثياب على حقيقتها ، والتطهير على مجازه ، وهو التبصير . لأن العرب كانوا يطيلون ثيابهم ، ويجرون أذيالهم خيلاء وكبراً ، فأمر بمخالفتهم . ورابع وهو عكس

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت لغيلان بن سلمة الثقفي .

قال في اللسان (ثوب) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يقول : لا تلبس ثيابك على معصية ، ولا على فجورٍ كفرٍ . واحتج بقول الشاعر :

إني بحمد الله ، لا ثوبَ غادرٍ لبستُ ولا عنْ خَزِيَّةٍ أَتَقَنَّعُ

هذا ، وذلك ، بحمل الثياب على الجسد أو النفس كناية ، كما قال عنتره ^(١) :

* فشككتُ بالرمح الأصم ثيابَهُ *

أى : نفسه . ولذا قال :

* ليس الكريم على القنا بمحرّم *

واستصوب ابن الأثير في (المثل السائر) الوجه الأول . قال في الفصل الثالث من فصول مقدمته : اعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل ، كقوله تعالى (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) . فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس . ومن تأول ، ذهب إلى أن المراد هو القلب ، لا اللبوس . وهذا لا بدله من دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ .

ثم قال : المعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف . والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف ، إذ باب التأويل غير محصور ، والعلماء متفاوتون في هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل ، فيكسوه بعبارة قوة تميزه عن غيره من الوجوه القوية ، فإن السيف يضاربه ^(٢) :

إن السيوف مع الذين قلوبهم
كقلوبهن ، إذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حده
مثل الجبان بكفّ كل جبان . انتهى
ويكفي دليلاً ما للعرب من الشواهد والأمثال . والاستعمال لا ينحصر في الحقيقة . نعم ،
المتبادر أولى وأجدر ، وهو عنوان الحقيقة .

(١) من معلقته التي أولها :

هل غادر الشعراء من متردّم
أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟
التردّم : الموضع الذي يسترقع ويستصلح ، لما اعتراه من الوهن والوهي .

(٢) فأنله أبو الطيّب المتنبّي ، من قصيدته التي مطلعها :

الرأى قبل شجاعة الشجمان
هو أولّ ، وهي المحل الثاني

الديوان (ص ٤١٢) طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤ .

وقوله تعالى : « وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » أى اتركه . و (الرجز) بكسر الراء كالرجس والسين والزاي يتبادلان ، لأنهما من حروف الصفير .

و (الرجس) اسم للقبیح المستقذر . كنى به عن عبادة الأوثان خاصة ، لقوله (١) : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق . والجملة من جوامع السكلم فى مكارم الأخلاق ، كأنه قيل : اهرج الجفا والسفه وكل قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز .

وقيل : المراد بالرجز العذاب ، وهجره كناية عن هجر ما يؤدى إليه من الشرك والمعاصى . فالرجز مجاز ، وقد أقيم مقام سبيه . أو هو بتقدير مضاف ، أى أسباب الرجز . أو التجوز بالتشبيه .

وقرى بضم الراء ، وهو لغة فى المكسور ، وهما بمعنى ، وهو العذاب .

وعن مجاهد أنه بالضم بمعنى الصنم ، وبالكسر العذاب .

وأمره ﷺ بذلك ، وهو برىء منه ، إما أمر لغيره تعريضاً ، أو المراد الدوام على هجره . « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » أى لا تعط عطية تلمس بها أفضل منها ، بمعنى : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه . يقال : مننت فلاناً كذا ، أى أعطيته . كما قال (٢) : (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ) أى فأعط أو أمسك . وأصله أن من أعطى فقد من ، فسميت العطية بالمن على سبيل الاستعارة . وجوز الفقهاء أن يكون الاستكثار عبارة عن طلب العوض كيف كان زائداً أو مساوياً . قال : وإنما حسنت هذه الاستعارة ، لأن الغالب أن الثواب يكون زائداً على العطاء . فسمى طلب الثواب استكثاراً حملاً للشيء على أغلب أحواله . وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تزوج ، ولها ولد ، للحاجة إلى من يربى ولدها ، فسمى الولد ربيباً ، ثم اتسع الأمر ، فسمى ربيباً ، وإن كان ، حين تزوج أمه ، كبيراً .

(١) [٢٢ / الحج / ٣٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٣٩] .

وسر النهي أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض ، والتفات النفس إليه تعففاً وكالاً وعلوّهمة .

وقيل : معنى الآية لا تعط عطاءً مستكثراً له ، فإن مكارم الأخلاق استقلال العطاء ، وإن كان كثيراً ، فالسبيل للمد والوجدان . وسبق في سورة الروم في قوله تعالى (١) : (وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُّوا۟ فِي۟ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّو۟ا۟ عِندَ اللّٰهِ) كلام في هذه الآية أيضاً فارجع إليه .
« وَرَبِّكَ فَاصْبِرْ » أى على أذى المشركين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَإِذَا تُقَرَّ فِي النَّاقُورِ)

[٩] (فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَمُّ عَسِيرٌ)

[١٠] (عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

« فَإِذَا تُقَرَّ فِي النَّاقُورِ » أى نفخ في الصور . و (الناقور) من النقر ، بمعنى التصويت . وأصله القرع الذي هو سبب الصوت . ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به أى : لما كان الصوت يحدث بالقرع . تجوز به عنه ، وأريد به النفخ لأنه نوع من الصوت .

« فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَمُّ عَسِيرٌ » أى شديد .

« عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » أى هين ، لما يحيق بهم من صنوف الردى . وفي قوله (غَيْرُ يَسِيرٍ) تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ، ويشعر بيسره على المؤمنين . ففيه جمع بين وعيد الكافرين وبشارة المؤمنين .

(١) [٣٠ / الروم / ٣٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)

[١٢] (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا)

[١٣] (وَبَنِينَ شُهُودًا)

[١٤] (وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا)

[١٥] (ثُمَّ يَظْمَعُ أَنْ أَزِيدَ)

[١٦] (كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عَنِيدًا)

[١٧] (سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا)

« ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » أى لا مال له ولا ولد .

« وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا » أى مبسوطًا كثيرًا ، أو ممدودًا بالنماء .

« وَبَنِينَ شُهُودًا » أى رجالًا يشهدون معه المحافل والجامع ، أو حضوراً معه يأنس بهم ،

لا يحوجه سفرهم وركوبهم الأخطار ، لاستغنائهم عن التكسب والمدح .

« وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أى بسطت له فى العيش والجاه والرياسة .

« ثُمَّ يَظْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » . أى من المال والولد والجاه . أو من النعيم الأخرى .

وهذا أظهر لقوله « كَلَّا » أى لا يكون ما يأمل ويرجو ، لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة

هم المقنون ، لا هو ، « إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عَنِيدًا » أى معانداً للحجج المنزلة والمرسلة .

« سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا » أى سأغشيه عقبة شاقة المصعد . وهو مثل لما يلقى من العذاب

الشاق الصعب الذى لا يطاق - قاله الزخشرى - .

قال الشهاب: ومعنى كونه مثلاً ، أنه شبه ما يسوقه الله له من المصائب ، بتكليف الصعود

في الجبال الوعرة الشاهقة ، وأطلق لفظه عليه . فهو استعارة تمثيلية .
ثم علل إرهاقه ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّهُ وَفَكَرَ وَقَدَّرَ)

[١٩] (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

[٢٠] (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

« إِنَّهُ وَفَكَرَ » أى ماذا يقول في هذه الآيات الكريمة والذكر الحكيم « وَقَدَّرَ »
أى فى نفسه ما يقوله وهىأه .

« فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » أى لعن ، كيف قدر ذلك الافتراء الباطل ، واختلق ما يكذبه
وجدانه فيه .

« ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » تكرير للمبالغة فى التعجب منه ، وقد اعتيد فيمن عجب
غاية التعجب أنه يكثر من التعجب ويكرره .

و (ثُمَّ) للدلالة على الثانية أبلغ فى التعجب من الأولى للمعطف بـ (ثُمَّ) الدالة على
تفاوت الرتبة . فكأنه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا بل قتل بأشده وأشدّه . ولذا ساغ
المعطف فيه ، مع أنه تأكيد .

وقد جوز الزمخشريّ فى هذه الجملة ثلاثة أوجه : أن تكون تعجبيا من تقديره وإصابته
فيه الخبز ورميه الغرض الذى كان تنتحيه قريش . أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ،
أو حكاية لما ذكره من قولهم (قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره ،
واستعظامهم لقوله .

ثم قال : ومعنى قول القائل : قتله الله ، ما أشجعه ، وأخزاه الله ، ما أشعره ، الإشعار
بأنه قد بلغ البالغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (ثُمَّ نَظَرَ)

[٢٢] (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ)

[٢٣] (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)

[٢٤] (فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ)

[٢٥] (إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)

«ثُمَّ نَظَرَ» أى فى ذلك المقدّر . أى تروى فيه . قال الرازى : وهذه المرتبة الثالثة من أحوال قلبه . فالنظر الأول للاستخراج ، واللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط .

وقال غيره : (ثُمَّ نَظَرَ) أى فى وجوه القوم .

«ثُمَّ عَبَسَ» أى قطب وجهه كبراً وتهيوّاً لقذف تلك الكبيرة «وَبَسَرَ» أى كلح وجهه . شأن اللئيم فى مراوغته وغثاته ، والحسود فى آثار حقه على صفحات وجهه . «ثُمَّ أَدْبَرَ» أى عن الحق «وَاسْتَكْبَرَ» أى عن الإيمان به . «فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ» أى ما هذا القرآن إلا سحر يروى ويتعلم . أى يآثره عن غيره . «إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» أى ليس بكلام الله ، كما يقوله .

تنبيه :

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومى ، أحد رؤساء قريش ، لعنه الله . وكان من خبره مارواه ابن إسحاق ؛ أن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذاسن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضهم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت ، يا أبا عبد شمس !

فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا ، والله ما هو بكاهن ! لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجمه . قالوا : فنقول : مجنون ! قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ! قال : ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر ! قالوا : ما هو بساحر . لقد رأينا السحار وسحرم ، فما هو بنفهم ولا عقدهم . قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ! إن لقوله للحلاوة ، وإن أصله لمذق ، وإن قرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه ، لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول ، هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم . لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره . فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة ، وفي ذلك ، من قوله (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ...) الآيات .

وعن قتادة : قال الوليد : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له للحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلم وما يعلى ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله الآيات - رواه بن جرير (١) - .

وتم روايات بنحو ما ذكر .

وقد روى عن مجاهد أن الوليد كان بنوه عشرة . وحكى الثعلبي عن مقاتل أنه أسلم منهم ثلاثة : خالد وعمار وهشام . قال ابن حجر في (الإصابة) : والصواب خالد وهشام واليد . فأما عمارة ، فإنه مات كافراً ، لأن قريشاً بمثوه للنجاشي ، فجرت له معه قصة ، فأصيب بقتله . وقد ثبت أنه ممن دعا النبي ﷺ عليهم من قريش ، لما وضع عقبة بن أبي معيط سلى الجزور على ظهره ، وهو يصلي .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

[٢٧] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)

[٢٨] (لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ)

[٢٩] (لَوْ أَحَاطَ لِلْبَشَرِ)

[٣٠] (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)

« سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » أى جهنم . وهو بدل من (سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا) بدل اشتغال ، لاشتغال (سَقَرَ) على الشدائد . « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ » قال الزخشرى : أى لا تبقى شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذر هالكاً حتى يعاد . أو لا تبقى على شيء ، ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة . « لَوْ أَحَاطَ لِلْبَشَرِ » أى محرقه للجلود ، من (لَوْحَتِ الشَّمْسُ) إذا سودت ظاهره وأطرافه . و (الْبَشَرِ) جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد . أو اسم جنس بمعنى الناس . وجوز أن يكون المعنى : لأحاط للناس ، من (لاح) بمعنى ظهر ، والبشر بمعنى الناس . « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » أى من الخزنة المتولين أمرها ، والتسلط على أهلها ، وفيه إشارة إلى أن زبانية العذاب الأخرى ، تفوق زبانية الجبارة فى الدنيا أضعافاً مضاعفة ، تنبيهاً على هول العذاب ، وكبر مكانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً

لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَا ذَا آرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ)

« وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ » أى خزنتها « إِلَّا مَلَائِكَةً » أى وهم أقوى الخلق بأسًا ، وأشدّهم غضبًا لله ، ليباينوا جنس المعذنين ، فلا يستروحون لهم . « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى من مشركى قريش . أى إلا عدة من شأنها أن يفتن بها الكافرون ، فيجعلوها موضع البحث والمهزء .

قال الجبائى : المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوى هؤلاء التسعة عشر على ما لا يقوى عليه مائة ألف ملك أقوياء .

وقال الكعبى : المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوتز المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعين إلى علم الخالق سبحانه . قال : وهذا من التشابه الذى أمروا بالإيمان به . « لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى رسالة النبى صلوات الله عليه لإنبائه من وعيد الجاحدين الفسدين ما لديهم مصداقه . واللام متعلقة بـ (جَعَلْنَا) الثانية .

فإن قيل : كيف يصح جعلهم فى نفس الأمر على هذا العدد ، معللاً باستيقان أهل الكتاب ، وازدياد المؤمنين ، واستبعاد أهل الشك والنفاق ، وليس إيجادهم تسعة عشر سبباً لشيء من ذلك ، وإنما السبب لما ذكر ، هو الإخبار عن عددهم بأنه تسعة عشر ؟ والجواب : أن الجمل يطلق على معينين :

أحدهما - جعل الشيء متصفاً بصفة فى نفس الأمر .

وثانيهما - الإخبار باتصافه بها ، ويقال له : الجمل بالقول . أى وما جعلنا عدتهم بالإخبار عنها إلا عددًا يقتضى فتنهم ، لاستيقان أهل الكتاب ... الخ . أى وقلنا ذلك

وأخبرنا به لاستيقان... الخ. وعبر عن الإخبار بالجمل ، لمشكاة قوله (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ... الخ - هذا ما قرره شرّاح القاضي - .

«وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا» أى تصديقاً إلى تصديقهم بالله ورسوله . «وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا» أى حتى يخوفنا بهؤلاء التسعة عشر .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف ذكر الذين في قلوبهم مرض ، وهم المنافقون ، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة تفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟

قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ، والكافرون بمكة ، ماذا أراد الله بهذا مثلاً . وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون ، كسائر الإخبارات بالقيوم . وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتباب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين ، وبعضهم قاطعين بالكذب . انتهى .

وقال الرازي : إن قيل : لم سموه مثلاً ؟

فالجواب : أنه لما كان هذا عدداً عجبياً ، ظن القوم أنه ربما لم يكن مراد الله منه ما أشعر به ظاهره ، بل جملة مثلاً لشيء آخر ، وتنبهياً على مقصود آخر ، لا جرم سموه مثلاً .

«كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ» أى إضلاله لصرفه اختياره إلى جانب الضلال : عند مشاهدته آيات الله الفارقة بالحق . «وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» أى هدايته لصرف اختياره عند مشاهدته لتلك الآيات إلى جانب الهدى «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ» قال الزمخشري : أى وما يعلم ما عليه كل جند من العدد الخاص ، من كون بعضها على عقد كامل ، وبعضها على عدد ناقص ، وما في اختصاص كل جند بعدده ، من الحكمة إلا هو . ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا يعرف الحكمة في أعداد السموات والأرضين وأمثالها . أو وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يميز عليه الزيادة على عدد الخزنة المذكور ، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها . انتهى .

ويجوز أن تكون الجملة تأييداً لكون ما تقدم مثلاً . أى أن المؤمنين يستيقنون بأن عدتهم ضربت مثلاً للكثرة غير المعتاد سماعها للكافرين . ومن سنته تعالى ضرب الأمثال في تنزيهه ، وإلا فلا يعلم جنوده التي يسلطها على تعذيب من يشاء إلا هو . وهذا معنى آخر ، لم أقف الآن على من نبه عليه . ويؤيده قوله :

« وَمَا هِيَ » أى عدتهم المذكورة « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ » أى عظة يرهبون منها عذاب الغار ، وهول أصحابها .

وقيل الضمير لـ (سقر) . وقيل : للآيات . والأقرب عندي هو الأول لسلامته من دعوى كون ما قبله معترضاً ، إذا أعيد الضمير لغيره ، ولتأنيده لما قبله بالمعنى الذى ذكرناه . القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (كَلَّا وَالْقَمَرَ)

[٣٣] (وَاللَّيْلِ إِذْ أَذْبَرَ)

[٣٤] (وَالصُّبْحِ إِذْ آسَفَرَ)

[٣٥] (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ)

[٣٦] (نَذِيرًا لِلْبَشَرِ)

[٣٧] (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)

« كَلَّا » ردع لمن أنكر العدة أو سقر أو الآيات . أو إنكار لأن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون ، « وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَذْبَرَ » أى ولى ذاهباً بطلوع الفجر . « وَالصُّبْحِ إِذْ آسَفَرَ » أى أضاء . ومن فوائد القسم بها الاعتبار بفوائدها ، والاستدلال بآياتها ، كما تقوم فى سورة (الصافات) :
« إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أى الأمور العظام .

« نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » أى إنذاراً لهم ، فنصبه على أنه تمييز عن (إحدى) لما تضمنته من معنى التعظيم ، كأنه قيل : أعظم الكبر إنذاراً . فـ (نذيراً) بمعنى الإنذار ، كنكير بمعنى الإنكار . أو على أنه حال عما دلت عليه الجملة . أى كبرت منذرة ، فـ (نذيراً) مصدر مؤول بالوصف ، أو وصف بمعنى منذرة .

« لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ » أى يسبق إلى الإيمان والطاعة « أَوْ يَتَأَخَّرَ » أى يتخلف . و (لمن) بدل من (للبشر) أى منذرة لمن شاء والتقدم والفوز ، أو التأخر والهلاك . أو خبر مقدم ، و (أَنْ يَتَقَدَّمَ) مبتدأ مؤخر ، كقولك لمن توضع أن يصلى ، كناية^(١) (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) وفى الثانى بُعد . وزعم أبو حيان أن اللفظ لا يحتمله ، ولم يسلم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[٣٩] (إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ)

[٤٠] (فِي جَنَّاتٍ يَدْخُلُونَ)

[٤١] (عَنِ الْمُجْرِمِينَ)

[٤٢] (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ)

[٤٣] (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ)

[٤٤] (وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ)

[٤٥] (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

(١) [١٨ / الكهف / ٣٩] .

[٤٦] (وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ)

[٤٧] (حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ)

[٤٨] (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » أى مرهونة ومحبوسة به عند الله تعالى . « إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » أى فإنهم فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الرهن رهنه بأداء الحق . « فِي جَنَّاتٍ » أى هم فى جنات لا يدرك وصفها « يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ » أى يسألون عنهم . وإيثار صيغة التفاعل للتكثير . ومنه (دعوته وتداعيناه) .

وقال القاشانى : أى يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين ، لاطلاعهم عليها ، وما أوجب تعذيبهم وبقاءهم فى سقر ، فأجاب المسؤولون بأننا سألناهم عن حالهم بقولنا :

« مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا » أى بلسان الحال أو المقال « لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصْطَلِينَ *

وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمُسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ

الدِّينِ » أى كنا موصوفين بهذه الرذائل من اختيار الراحة البدنية ، ومحبة المال ، وترك

العبادات البدنية ، والخوض فى الباطل ، والهزل والهذيان ، والتكذيب بالجزاء ، وإنكار المعاد .

« حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ » أى الموت ، فرأينا به ما كنا ننكره عياناً . « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ

الشَّافِعِينَ » أى من نبيٍّ أو ملك ، لو قدر على سبيل فرض الحال ، لأنهم غير قابلين لها .

فلا إذن فى الشفاعة لذلك . فلا شفاعاة ، فلا تنفع .

قال ابن جرير^(١) : أى فما يشفع لهم الذين شفّعهم الله فى أهل الذنوب من أهل التوحيد ،

فتنفعهم شفاعتهم . وفى هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى ذكره ، مشفعٌ لبعض خلقه

فى بعض .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ)

[٥٠] (كَأَنَّهُمْ مُحَرَّمُونَ مُسْتَنْفِرَةٌ)

[٥١] (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)

[٥٢] (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً)

[٥٣] (كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ)

[٥٤] (كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ)

[٥٥] (فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ)

[٥٦] (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ)

« فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ » أى فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة الله إليهم بهذا القرآن معرضين ، لا يستمعون لها ، فيتمعضوا ويمتبروا . « كَأَنَّهُمْ مُحَرَّمُونَ مُسْتَنْفِرَةٌ » أى كأنهم فى الإعراض عن الذكرى ، وبلادة قلوبهم ، حمر شديدة الغفار . « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى أسد ، أو عصابة فنص من الرماة . « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً » أى ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبي ﷺ . ونحوه آية (١) (وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ) وآية (٢) (وَلَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ) وآية (٣) (وَلَوْ فَرَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ . . .) الآية .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٩٣] .

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٧] .

« كَلَّا » أى لا يكون مرادهم ، ولا يتبع الحق أهواءهم . أو ليس إرادتهم تلك
للرغبة فى الإيمان ، فقد جاءهم ما يكفيهم عن اقتراح غيره ، وإنما هم مردة الداء ، ولذا قال :
« بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ » أى لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، ولا يخشون العقاب ،
لإيثارهم العاجلة . أى فذلك الذى دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله ، والإباء عن الإيمان
بتنزيله . « كَلَّا » ردع عن إعراضهم « إِنَّهُ وَتَذَكُّرٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ » أى فانهض
وعمل بما فيه من أمر الله ونهيه . « وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » أى ذكرهم
واتعاضهم ، لأنه لا حول ولا قوة إلا به سبحانه . وفيه ترويح لقلبه صلوات الله عليه ،
مما كان يخامرهم من إعراضهم ، ويحرص عليه من إيمانهم . « هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى » أى حقيق
بأن يتقى عقابه ، ويؤمن به ويطاع . « وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » أى حقيق بأن يغفر لمن آمن به
وأطاعه .